

إرهاصات الطب النفسي الإيقاع الحيوي التطوري.

منذ نصف قرن 1968 :

مقتطفات من كتابه "منذ ما يتعري الإنسان"

من حكاية: "الشعلة والحريق"

مزيد من المقتطفات: من حكاية:

"العلامة"

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD290517.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2017/05/29

السنة العاشرة - العدد: 3558



مقدمة:

سبق أن اقتطفنا من هذه الحكاية ما تيسر مما له علاقة بالمنطق الأساسي للطب النفسي الإيقاع الحيوي، إلا أنني وجدت بها من الحوارات ما يدعم موقفنا من نقد الموقف السلطوي لما يسمى بالبحث العلمي دون مساس بالعلم والمعرفة من كل مناهلهما، فقلنا نستزيد اليوم من نفس الحكاية بلا تعليق.

مقتطفات من حكاية "العلامة"

المقتطف (1)

.....

قال (المريض العالم)

أفنت نفسي أنني جنيت إليك أنفج على علمك، أو عليك، لن ترتقي أبدا لأن تكون ناسا عندي، أنا دفعت لك تماما كما أشترى كتابا، وعندى أمل ان تكون أسهل في القراءة... أما كونك إنسانا "آخر" فهذا ليس في حسابي رغم أن جزءا غائرا في نفسي يتمناه.

قلت (الطبيب/الحكيم):

= ولكنى إنسان، وهذا هو أساس مهنتي.

قال:

- يا ليت، فما هذا الذي تعلقه على الجدران في الصالة؟! أنت "عالم" قبل أن تكون طبيبا، هذه

هي صورتك عندي، وهي صورة لا تسر بعد ما حدث لي.

= وهل هناك تناقض بين أن أكون عالما وأن أكون طبيبا إنسانا.

قال:

- هذا ما جاء بي إليك.. فقد عشت هذا التناقض منذ اللحظة الأولى بين الكتاب والإنسان، بين العلم

المجرد ونبض الحياة، وكانت نهايتي كما ترى: هنا بين يديك، هارب من الجنون أو قل هارب إلى

الجنون. منذ اللحظة الأولى..، منذ تركتني أمي دودة تسعى في صحراء بلا ناس، منذ خدعتني وقالت:

سأتي حالا ولم تأت أبداً، منذ أحببتني حبا لصفتي بها جزءا منها، ثم تركتني فجأة كتابا ملقى على

الطريق تعبت بصفحاته عواصف الصحراء، أعنى حوش المدرسة، وظلت العواصف تقلب

قد عشت هذا التناقض منذ اللحظة الأولى بين الكتاب والإنسان، بين العلم المجرد ونبض الحياة، وكانت نهايتي كما ترى: هنا بين يديك، هارب من الجنون أو قل هارب إلى الجنون

صفحاتي حتى تمزقت دون أن تتطير، وها هي بقاياها بين يديك، .. هذا الذي أمامك هو بعض ما تبقى مما لا يصلح لشيء، .. أنا الغلاف والمقدمة والخاتمة، أما محتوى الكتاب فهو ضائع مني، وبالتالي فهو ليس في متناولك.

.....

المقتطف (2)

قال (المريض العالم)

..وكلما تدرجت على سلم الشهادات انزعجت من تلك المقاييس التي تقيم الناس، وكان آخر المطاف شهادة الدكتوراه: رسالة وامتحان يرضى كل الممتحنين بلا استثناء - أي والله بلا استثناء - وتيقنت أن آخر شهادة هي أخطر شهادة، لأنها تعطيك حق الجهل، وهي شهادة تُعطي ولا تُؤخذ، تدل على الرضا أكثر مما تدل على العلم، أما أنها تعطي حق الجهل فهذا أخطر ما فيها.

قلت (الطبيب الحكيم):

= لا تغالِ.. وقل لي كيف؟

قال:

- أنا لا أغالي، ولو لم أكن حاصلًا عليها لحسبتُ ذلك شعورا بالنقص أو حقدا ولكني حاصل عليها من أول مرة وبامتياز، ومع ذلك فأنا لا أقول إلا الحق، فقبل هذه الشهادة يتمتع الطالب أو العالم بفضيلة الحياء، فيخشى أن يفني فتوى دامغة إلا إذا راجعها وحسب لها حسابها، أما بعد أن يحصل عليها فإن له أن يقول ما شاء دون حساب مباشر، خاصة في بلدنا هذا، هذا هو الخطر بعينه، أن يحسب الانسان نفسه عالما بالشهادة، فالشهادة قد تكون خدعة كبرى لأنها من الرموز التي تعدت معناها حين أصبحت غاية في ذاتها، وأصبح تقويم الانسان صغيرا وكبيراً مرتبطاً بها ارتباطاً وثيقاً، وهذا من ضرائب العصر التي لم نجد لها بديلاً حتى الآن..

قلت:

= ولكن ماذا ضرك في كل هذا.

قال:

- لا شيء حتى الآن إلا جفاف الحياة، وفقد نشوة الانتصار. بعد الشهادة الكبيرة عشت الألم الرهيب الذي انتهى بكسرى الذي أتى بي إليك هذه هي الحكاية.

قلت:

=أية حكاية؟

قال :

-حكايتي مع العلم والعلماء والبحث والمبادئ ، أنا حين سلكت طريق العلم أصبح للكلمة محراب فيه أرقام وأرقام أهتز لها احتراماً، وأنحني أمامها تبجيلاً، ولكن حين أصبحتُ أحد خدام هذا المحراب اكتشفت أن ما به ليسوا آلهة كلهم، هناك أيضاً أصنام من الحجارة تبدو عليها سمات الآلهة، واهتزت وتشككت وكنت أترجع وأنا أكتشف أن الأبحاث فيها الحسن وفيها السيء، وحين تقرأ بحثاً فأنت إما أن ترفضه وإما أن تقبله، ولكني كنت أحد خدام المحراب وولدانه، فمارست تناول الماء المقدس من الداخل ولم يكن دائماً مقدساً، خصوصاً لدى الكهنة الأساتذة المشايخ والأخبار.

.....

المقتطف (3)

قال (العلامة):

- أنا لا أتحدث عن قواعد، أنا أتحدث عن تجربتي الخاصة، أنا مريض نفسي وأنت طبيب نفسي،

صفحاتي حتى تمزقت دون أن تتطير، وها هي بقاياها بين يديك، .. هذا الذي أمامك هو بعض ما تبقى مما لا يصلح لشيء، .. أنا الغلاف والمقدمة والخاتمة، أما محتوى الكتاب فهو ضائع مني، وبالتالي فهو ليس في متناولك

هذا هو الخطر بعينه، أن يحسب الانسان نفسه عالماً بالشهادة، فالشهادة قد تكون خدعة كبرى لأنها من الرموز التي تعدت معناها حين أصبحت غاية في ذاتها

وقد تحرجت طويلاً أن أقول هذا الكلام بين زملاء، كانوا يشعرون أنى أهاجمهم وأكشف عوراتهم فى حين أنى كنت أنقد نفسى معهم، كانوا يدافعون عن جلال العلم وهيبته "الأساتيد" دون محاولة لمناقشة صدق محاولتى، وكان الأستاذ هو أستاذنا لأنه أستاذ، وليس لأنه رائد وموجه وناقد وإنسان، وظللت أكتب وأخطئ نفسى وأعمل حساباً للذى يصح والذى لا يصح، وأفوت وأصهين وأسكت وأغمض حتى انكسرت، وجئت إليك يا سيادة الأستاذ الطبيب النفسى، ولكن قل لى هل أنت تعترض لأنك أستاذ أم لأنك طبيب؟ لمصلحة من تحاول أن تزين لى حقائق عشتها أنا بكل الألم والمرارة، وتقول أنت تبالغ؟ أنتم الذين تبالغون فى العمى والضلال.

قلت:

=العمى والضلال مرة واحدة؟ هكذا؟

قال:

-نعم بحجة احترام الواقع والمجاملات، إن الواقع محترم. طالما هو صدق وأمانة، والمجاملات عظيمة طالما هى الزيت الذى يلين تروس المعاملات الجافة، أما أن نرصد الأرقام ونتبع مبدأ "من سهّل، سهل الله عليه" فإن ذلك هو العمى والضلال.

قلت:

=ولكنها تجربة خاصة.. فلماذا تعمها؟

قال:

-أنا لا أعم شيئاً.. أنا إنسان مكسور ضعيف مهان، وملقى فى كرسى فى عيادة نفسية، فى عقلى خلل وفى إدراكى شطط، ومن حقى أن أحرّف ما شئت، وإلا ما فائدة أن يمرض الإنسان، أليس المرض سبيلاً إلى حرية ما، ألا يمكن أن يكون عذراً لأمتالى ليقولوا ما يشاؤون، أم أنه دائماً علقه قبل وبعد الحديث الطليق؟

.....

المقتطف (4)

قال:

-نعم "ذلك اليوم" .. كنت هناك، وكان بحثاً ضخماً مفتخراً به من الجداول أربعة عشر ومن الصفحات ما يربو على العشرين، كنت أعرف فيه نقاطاً ضعيفة وكم هاجمتها فى غير هوادة، ومضت الأيام.. حتى دخل ذلك البحث سرداباً خفياً فى جانب ذاكرتى ثم اضطررت فى ذلك اليوم أن أقدمه، ووجدتني أستحضره وأنا أكاد أفخر به لحسن ترتيبه، ووجدتني أدافع عن نقط ضعيفة، كم سبق أن رفضتها، وفجأة حدث الذى كان.

قلت:

=وما الذى كان؟

قال:

- أثناء إلقاء البحث، اخترق رأسى من الداخل فجأة، ما بين عينيّ: صاروخ مثل السيف المحمى على النار، واضطربت الألفاظ أمام عيني وأصابتنى دوخة وعجزت عن الاستمرار فى إلقاء البحث، كيف أدافع عما لا أعتقد؟ وفى أى مجال؟ فى مجال العلم؟ أحسست بأنى داعر، لا تؤاخذنى فى التعبير، ولكن لا تنس أنى مريض، وأنى ما مرضت إلا لأخذ حقى فى التعبير، فحيث تكون السلامة تكون المجاملة ويكون الكلام ممنوعاً والسكوت ممنوعاً أيضاً.

قلت:

= ولكن هذا البحث.. .. ماذا به؟ ، ماذا حدث فى ذلك اليوم، هل اكتشف أحدهم فى المناقشة أن به

حين سلكت طريق العلم
أصبح للكلمة محرّاب فيه
أرقام وأرقام أهنز لها
احتراما، وأنجنى أمامها
تبعيلاً.

حين أصبحت أحد خدام هذا
المحرّاب اكتشفت أن ما به
ليسوا آلهة كلمهم، هناك أيضاً
أصنام من الحجارة تبدو عليهما
سمات الآلهة

شيء؟

قال :

- لا .. ليس به شيء، هذه هي المصيبة، ولأنه ليس به شيء فقد كُسرْتُ لأُننى اكتشفت أننى أدافع عن لا شيء، هل يمكن أن تتصور إنسانا يمسك بكل أسلحته للدفاع، ثم يكتشف أنه يدافع عن أعدائه هو، تقضى عمرك تدافع عن محتويات خزانة عقلك ثم فى لحظة يقظة تفتح الخزانة فإذا بها خاوية على عروشها، حينئذ تصعق وتدور الأسئلة تلسع رأسك ثم تتطلق سهام الملتهبة المصنوعة من معدن صلب، تشل عقلك، وأعتقد أن أحدها هو الذى أصابنى بين عيني، كنت أراه فعلا وهو ينطلق نحوى، شعرت أننى لو مضيت أدافع نفس الدفاع، كأُننى أحلف بمقام الشيخ الذى تحت القبة، ولا أحد يعرف سوى أن المدفون تحت القبة هو حمار نافق، وليس شيئا ذا كرامة.

قلت:

=ولكن ليست كل الأبحاث هكذا.

قال:

- آه .. نكّرتنى، مرة من ذات المرات كنت أجلس وكان ذهنى خاليا من كل شيء، كنت فى حديقة ما.. أمسك زهرة جميلة وكأنى مراهق يتأمل التوافق بين ذاته وبين الكون، وخطر ببالى وبدون سابق إنذار نفس التعبير الذى قلته انت الآن: "أنه ليست كل الأبحاث هكذا".. فرد آخر من داخلى يقول "هكذا كل الأبحاث"، وأفقت من لحظة التوافق والانسجام، وجعلت أتأمل مشكلتى المحيرة، وارتسمت ابتسامة ما على عقلى، ونظرت للوردة فى يدى وأخذت أقطف أوراقها وأنا أردد "ليست كل الأبحاث هكذا"... "هكذا كل الأبحاث"... "ليست كل الأبحاث هكذا"... وظننى الناس عاشقا ينتظر عشيقته ويسأل الوردة "ستحضر.. لن تحضر..". ووجدت عنق الوردة وقد تعرى من جمال الوريقات، وأنا اتساءل تساؤلى الذى لا ينتهى، وهتف لى هاتف أن مصير الطبيعة فى المعمل الجاف الذى ينسى نبض الانسان... مثل مصير الوردة بين يدى إنسان قلق أوشك على الانهيار، وتبينت ساعتها أن الانهيار قادم لا محالة ورفضته وتمنيته فى ذات الوقت..

.....

المقتطف (5)

قلت :

= سوف نبدأ برفض ما رفضت.

- حقاً؟

= ولم لا؟

-لأنى مريض؟

= بل هو رفض الزيف والخداع.

-ومن قال لك أنه زيف وخداع؟

=أنت الآن.

-وكيف تصدقنى وتكذب لجنة التحكيم التى أجازت نشر البحث فى أحسن المجالات؟

-علم أجد أى مبرر أن أكذبك، ولا أى مصلحة لك فى أن تكذب علىّ، ووجدت أن الأقرب لى هو

أن أبدأ بأن أقبلك بكل ما تحويه وتمثله وتقبله وترفضه.. فهل تقبلنى أنت؟

- أنا؟.. أنا أخاف منك.

= عندك حق، فى أزمك هذه لك كل الحق أن تخاف من كل الكلام وكل الناس.. ولكن للأمر وجه

آخر.

إن الواقع محترم. طالما هو
صدق وأمانة، والمعاملات
مخفية طالما هي الزيت الذي
يلين تروس المعاملات الجافة.
أما أن نرص الأرقام وتتبع
مبدأ "من سمل، سهل الله
عليه" فإن ذلك هو العمى
والضلال

هتف لى هاتف أن مصير
الطبيعة هي المعمل الجاف
الذى ينسى نبض الانسان...
مثل مصير الوردة بين يدى
إنسان قلق أوشك على
الانهيار، وتبينت ساعتها أن
الانهيار قادم لا محالة ورفضته
وتمنيته فى ذات الوقت

- وأخاف أيضا من هذا الوجه الآخر.
 - = ولكنك لا تعرفه.
 - أنا خائف.. طيور فكرى تهرب من كل الأفاص.
 - = ولكنها لو استمرت فى السماء بلا حدود.. فسوف تهلك أنت وهى.
 - ستبحث لها عن عش ولو فى القطب المتجمد.
 - = تهلك من البرد والوحدة.
 - أفضل من السجن داخل الخداع.
 - = ولكن هناك احتمال آخر.
 - أى احتمال؟
 - = الإنسان.
 - هو الذى أشقانى وعذبنى حتى انكسرت.. أمى كانت الإنسان الأول فى حياتى ثم تركتني دودة تسعى فى صحراء المدرسة بين حروف جافة وطباشير أكلح لا نبض فيه، ثم سجت وأنا أبحث عن الانسان بين صفحات الكتب، ثم فجعتُ وأنا أفتقدُ الإنسان فى مجال العلم الجامد.
- قلت:**
- =ولكن هذا لا يعنى أن نكف عن التعليم أو نهاجم الكتب كلها أو نحطم قدسية العلم.

وبعد

نلتقى الأسبوع القادم مع حكاية أخرى

*** **

مؤسسة علمية وعلوم النفس العربية

Arab Foundation Of Psychological Sciences

<http://arabpsynet.com/>

<http://www.arabpsyfound.com/>

اصدارات مكتبي

السلسلة المكتبية "نفساني" بي

"الكتاب العربي لعلوم وطب النفس"

<http://www.arabpsynet.com/apneBooks/index.eBooks.htm>

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=16&controller=category&id_lang=3

*** **

السلسلة المكتبية "وفى انفسكم"

<http://www.arabpsynet.com/apneBooks/index.eBFiAnfosikom.htm>

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=17&controller=category&id_lang=3

*** **

السلسلة المكتبية "الراسخون"

إصدار لجنة التراث النفسى العربى اسلامى

<http://www.arabpsynet.com/TourathPsy/index.TourathPsy.htm>

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=18&controller=category&id_lang=3

*** **

سلسلة "الكتاب الأبيض" للعلوم النفسى العربية

www.arabpsynet.com/WhiteBooks/eWBIndex.htm

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=32&controller=category&id_lang=3

*** **

السلسلة المكتبية "الإنسان والتطور"

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRakAr.htm>

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=20&controller=category&id_lang=3